المرجعيّة المولويّة للتصوّف وتجديد الفكر الدينيّ في الهند

أ. د. محمّد ثناء الله الندوي*

توطئة:

السياق المولويّ لتطوّر الفكر الصوفيّ في الهند يمثّل جانبًا مهمًّا من تاريخ الثقافة الإسلاميّة الهنديّة، إذ يغطّي بطبيعة حاله مساحةً كبيرة من التداول العلميّ والأدبيّ والتجريب الروحيّ منذ أن تعزّزت هيكليّة الإسلام سياسيًّا وثقافيًّا بخلفيّة تمركز الحكومات الخوارزم شاهيّة والأناضوليّة والفارسيّة. ولا يعزبنّ عن البال أنّ المنافذ الفارسيّة هي الثانية -مباشرة في تاريخيّة الزحف الإسلاميّ السياسيّ في شبه القارة الهنديّة بعد مرحلة محمّد بن القاسم الثقفيّ والإمارة العربيّة الأولى (٧١٢-٧٤٠م) في منطقة السند (ديبل وملتان ومنصورة)، وذلك لأنّ الإمارة الهباريّة (٨٤٠-١٠٢٤م) تأسّست بقيادة عمر بن عبد العزيز الهباريّ في مدينة منصورة وكانت من السنّة قبل التحوّل إلى الولاء الإسماعيليّ والفاطميّ، ثمّ جاء السومرو وأنشأ إمارته، على أن خفيف السومرو انهزم أمام الغزنويّين، ثمّ جاء الماهانيّون (١٩٨- ٢١٠هـ) أيّام المامون في بغداد، ثمّ كانت الإمارة الساموّية في مدينة ملتان من ولد سامة بن لويء، وقد زارها المقدسي في العام ٣٧٥هـ، ثمّ جاء الغزنويّون (٩٧٧-١١٨٦م) في سلسلة ضمّت الحكومات الإسلاميّة في الهند، من الغوريّين (٨٧٩-١٢١٥م) والمماليك (١٢٠٦-١٢٩٠م) والخلجيّين (١٢٩٠-١٣٢٠م) والتغلقيّين (١٣٢٠-١٤١٣م)

* قسم اللغة العربيّة وآدابها جامعة علي كره الإسلاميّة، الهند sanaullahnadawi@gmail.com

والمغول (١٥٢٦-١٨٥٧م) بجنب عدد من الإمارات في شمال الهند وشرقها وفي منطقة الدكن، وكانت الفارسيّة هي لغة الدولة الرسميّة.

كثرت رحلات الشيخ جلال الدين البلخي الروميّ (١٢٠٧-١٢٧٣م) في مختلف أقطار العالم الإسلاميّ (نيسابور وبغداد والحرمَين الشريفين ودمشق وقونية، وسواها)، وعلى الرغم من أنّ قدميه لم تطآ أرضَ الهند، ولكنّ مولده في بلخ مدينة البرامكة الذين يحتفظ التاريخ بإسهامهم الكبير في تأسيس بغداد علميًّا وثقافيًّا في سياق أصلهم الهنديّ- (محمد ثناء الله الندوي: التراث الهندي في الحضارة الإسلاميّة، ص ٤٢٢-٢٥٧) والتي كانت جزءًا مهمًّا من إمبراطوريّة الموريّين (٣٢٢-١٨٤ قبل الميلاد) والإمبراطوريّة الغبطاويّة (٣٢٠-٥٥٠ م) لا ينفصم عن أهميّة تاريخيّة في سياق الثقافة الهنديّة القديمة المتمثّلة في البوذيّة والآثار البوذيّة ذات المحتوى الروحيّ المهمّ مثل النرفانا ومنظومتها الروحيّة المنتظمة والتي صمدت في وجه تقلّبات الزمن حتى اليوم في مناطق أفغانستان وما وراء النهر، على أنّ الهند حظيت في شخصيّة شرف الدين بوعلي شاه قلندر الباني بتيّ (ت. ١٣٢٤م) أو "شرف العراقي" بهمزة وصل مباشرة بين الرومي وشمس التبريزي (١١٨٥-١٢٤٨م) وفريد الدين العطّار (ت. ١٢٢١م)، إذ مكث القلندر بينهم أعوامًا خمسة يسجّله محمّد هادي رضا قلي خان هدايت في "تذكرة رياض العارفين" (محمد هادي رضا قلى خان، ص ١١٤).

من جهة أخرى نجد شخصية الروميّ تتحوّل إلى مرجعيّة رئيسة لتطوّر الفكر الصوفي في الهند بغض النظر عن الخلافات المؤسّسية بين سلاسل التصوّف الرئيسيّة (الجشتيّة والسهروردية والقادريّة والنقشبنديّة)، في بُعد متمثّل في قدوم شخصيّات صوفيّة مهمّة من أفغانستان وإيران وآسيا الوسطى مثل الشيخ قطب الدين بختيار الأوشي الكاكي (١١٧٣-١٢٣٥م) والخواجه معين الدين الچشتي (١١٤٣-١٢٣٦م) والشيخ أشرف جهانگير السمناني (١٣٠٨-١٣٨٦م) والشيخ شرف الدين أبوعلي قلندر الباني بتيّ (ت ١٣٢٤م) والشاه جلال المجرّد (١٢٧١-١٣٤٦م) والمير السيد على الهمداني (١٣١٤-١٣٨٤م) وسواهم (محمد ثناء الله الندوي، ٢٠١٩:

تقديم كتاب مصادر التصوّف الفارسي لسعيد نفيسي؛ نفسه، التعايش الفكري في الإسلام، ٢٠١٧، ص ١٣٧-١٦٣؛ نفسه، الترجمة الأدبية الدينية والفلسفية في الهند، ٢٠٠٧، مج٢، ص ٤٩٧-٥٦٦).

المولويّات في الهند:

اهتمام الهنود بالمولوي في تعدّديّة أبعاد الثقافة الروحيّة -تأليفًا وشرحًا وتتبّعًا واتباعًا ممّا يفعم المشهد الصوفي والعلمي والحوار الأممي في الهند، إذ يرى الباحث كميّة لا يستهان بها من الأعمال العلميّة في لغات مختلفة أجنبيّة وهنديّة محليّة هي منتوج قرائح وأقلام هنديّة قديمًا وحديثًا.

لقد سجّل التاريخ اهتمامًا علميًّا مكثّفًا في سياق كتب تشرح المثنوي المعنوي قديمًا في الهند بالفارسيّة، ولا يمكننا في سياق هذا البحث سوى الاكتفاء بعض الأمثلة: كتاب "لطائف المعاني من حقائق المثنوي" (طبعة نولكشور لكناو ١٨٤٤) وكتاب "لطائف اللغات" (طبعة لكناو عام ١٨٨٧) لعبد اللطيف الگجراتي (ت. ١٦٣٨م) أيّام الإمبراطور شاهجهان، علاوةً على إعداد نسخة مكتملة للمثنوي من ثمانين مخطوطًا لها في حوزته وسمّاها "نسخة ناسخة"، وكتاب "دُرّ مكنون" للسيد عبد الفتاح العسكري الحسيني (الذي كان من حاشية السلطان أورنك زيب عالمگير) و"حل مثنوي" للشيخ أفضل الإله آبادي، و"شرح مثنوي" لأيوب پارسا ألّفه في العام ١١٢٠هـ، وكتاب "المغني" لمحمد عابد ألّفه في شرح المثنوي في العام ١٦٨٩م، وكتاب "شرح مثنوي معنوي" لعبد العلي السهالوي بحر العلوم (ت. ١٢٢٥م) الذي استفاد منه شبلي النعماني كثيرًا في تأليفه عن المولوي، وشرح محمد نور الله الأحراري وشرح شكر الله خان خاكسار من أقارب عاقل خان الرازي الذي كان من كبار مؤرّخي عصر أورنك زيب، و"مخزن الأسرار" لولي محمد الأكبر آبادي ألّفه بين ١١٤١-١١٥١هـ/ ١٧٢٧-١٧٣٨م ونسخه الخطيّة موجودة في مكتبات خدا بخش وجامعة بنجاب، و"رموز الطاهرين" و"كلشن أسرار" (١٧٨٤ هـ) لباقر علي خان بن غلام علي خان، ومجموعة مقالات بعنوان "ضياء القلوب" (١٨٩٠م) لملا عماد الله.

وهنـاك أعمـال لصوفية الهندوس اقتبسـت الكثير مـن أعمال المولـوي، منها كتاب "قلـزم سـروب" لمهامتـي براناناتـه (مـن مدينـة جامنگـر، گجرات، الـذي كان قد سـافر إلى إيران، و"مثنوى منبع طريقت" لسـوامي رام تيرته (تشـاندرا شـيكهر: ص ٢٩٠-٣٠١)، الأمـر الـذى يشـير إلـى اتسـاع مسـاحة التجـاوب الفكـريّ بيـن المسـلمين وغيرهم في شـبه القـارة الهنديّة في صميـم الثقافـة الروحيّة[١].

لقـد أسـلفنا أنّ لشـخصيّة الشـيخ شـرف الدين أبـى على القلنـدر البانـب بتي (ت ١٣٢٤م) أهميّة خاصة في سـياق مرجعيّة الروميّ للتصوّف الإسـلاميّ في الهند، إذ هو الشـخص الوحيـد الـذى الـذى صحب الروميّ حسـبما ذكـره مؤلف ريـاض العارفين محمـد هـادي رضا قلى خـان (محمد هادى رضا قلى خان، ص ١١٤) ومؤلف "سـوانح مولانا روم" شـبلى النعماني (شـبلي النعماني، "سوانح مولانا روم" (بالأردية)، ١٩٦١: ص ٣١). والقلنـدر البانـي بتي نفسـه ذكـر الرومي مرارًا فـي مثنويه المعروف بـ"كنز الأسـرار" أو "گل وبلبـل". والجديـر بالذكر أنّ البيتَيـن التاليَين للمولوي يرجعان إلـى القلندر البانـي بتي فـي توثيق نسـبتهما إلى الرومي:

---

١. راجع لكاتب هذه الأسطر:

Sanaullah, Mohammad, "Elements of Yoga in Sufism", in History of Science, Philosophy and Culture in Indian Civilization. General Editor: D. P. Chattopadhyaya, Volume XVI, Part 2 History of Yoga, edited by S.P. Singh (PHIPCS-Centre for Studies in Civilizations, New Delhi, 2010. ISBN 81-87586-44-3, pp. 629-652, 'A Synergy between Yoga and Sufi Sadhna', in Dilip Karambelkar, Kala Acharya and Mariano Iturbe (eds), Universal Brotherhood Through Yoga. Somaiya Publications Pvt. Ltd, Mumbai and New Delhi. Pp. 463-470. ISBN: 978-81-7039-306-1, 'Beyond Hagiography: The Great Saint of Ajmer Khwaja Moinuddin Chishti', in Proceedings of the International Interfaith Dialogue Seminar, organized by K.J. Somaiya Bharatiya Sanskriti Peetham, Mumbai, 4-7 Jan, 2008, pp. 337-366, ISBN 978-81-7039-272-9, Perspectives on the concept of basic elements in Islam, in 'The Cosmic Elements in Religion, Philosophy Art and Literature', by Kala Acahrya, Ignacio Arellano, Mariano Iturbe, Prachi Pathak, Rudraksha Sakriker (eds), Servicio de Publicationes de la Universidad Navarra, 2015. Biadeg. Biblioteca Aurea Digital del Grisco. 34. ISBN 978-84-8081-481-2, 'Spiritualism in South Asia: Aspects of Inter and Intra-Cultural Gnostic Sufi Mingling in the Indian Sub-Continent' in Islam in South Asia. Proceedings of International Symposium on Islamic Civilization in South Asia. Edited by Halit Eren. Istanbul: IRCICA, 2013, pp. 179-196. ISBN 9789290632603.

اين سخن در گوش دارى اى جوان
مولوى گفته ز روى امتحان
هم خدا خواهى وهم دنياى دون
اين خيال است ومحال است وجنون
(شرف الدين بوعلي قلندر: مثنوي گل وبلبل، ص ٨٢)

[ليكن في بالك يا فتى، لأنّ المولوي يبوح لك بالسرّ ليختبرك. إذا أردت أن يكون لك الله مع حطام الدنيا فهذا ليس سوى الوهم والجنون وضرب من المحال]

كما تجدر الإشارة إلى مرزا بيك أكمل كامل الكشميري الذى كان من حاشية الإمبراطور شاهجهان ومن مريدي الشيخ خواجه حبيب الله العطار، وله مثنوي شهير سماّه " بحر العرفان" في أربعة أجزاء تحوي ثمانين ألف بيت في مضامين التصوف على غرار المولوي وفريد الدين العطار. وهو القائل:

از مريدان شيخ عطارم
استعانت بمولوى دارم
(G.L. Tikku, ١٨٤٦-١٣٣٩, p. ١٣٢)

[أنا من مريدي الشيخ العطّار وأتزوّد بالاستعانة من المولوي]

لم يكن العصر الحديث أقلّ اهتمامًا بالمولوي، إذ قام الهنود بتأليف عدد كبير من الكتب في لغات عدّة، منها كتب باللغة الأرديّة مثل: "بوستان معرفت" وهو الشرح الأردي لمثنوي مولانا الرومي عمله عبد المجيد (طبعة منشى نول كشور١٩١٤م)، وسوانح مولانا الرومي للعلاّمة شبلي النعماني (١٨٥٧-١٩١٤م)، وأفكار رومي لعبد السلام خان و"موتيون كا هار ترجمة مثنوى عقد گوهر" من عمل بيرواده محمد حسين، واقتباس مثنوي لمحمد حسين خان، و"جلال الدين رومي: انساني روح كا سرمدى نغمه" وهو تأليف البروفيسور أختر الواسع وفرحت إحساس، و"مولانا جلال الدين رومي" للقاضي تلمّذ حسين، و"درس مثنوى مولانا روم" و"فغان رومي" للشاه حكيم محمد أختر، وأعداد ممتازة لمجلّات علميّة هنديّة مثل عدد " نذر رومي" لمجلّة "إسلام اور عصر جديد" الصادرة من الجامعة المليّة الإسلاميّة نيودلهي،

وسواها من الكتب والرسائل.

ومنها كُتب باللغة الهنديّة مثل: "رومي" و"كلام رومي"، وهما من تأليف السيد أبهى تيواري، و"صوفى سنت رومي صوفيانه كلام" للسيد فيشوا ناته، و"مولانا جلال الدين رومي" للسيد ترى ناته مشرا (٢٠٠٧م)، و"نشبد نوبور" للسيد بلرام شُكلا.

وتكثر مؤلّفات علماء شبه القارة الهنديّة عن الرومي باللغة الإنكليزيّة، منها:

Harendra Chandra Paul, Jalaluddin Rumi and His Tasawwuf (PhD thesis, University of Calcutta, 1960). Published in 1985.

Husain, K, The Legend of Rumi. The Great Mystic and the Religion of Love. Bharatiya Vidya Bhavan.

Ali Mohammad, The Life and Thought of Mohammad Jalaluddin Rumi (Lahore: Bazme-e Iqbal, n.d.)

Gupta, M.G, Maulana Rumi's Masnavi (Agra: MG Publishers, 1990)

Hakim, Khalifa Ahmad, The Metaphysics of Rumi - A Critical and Historical Sketch (Lahore: Institute of Islamic Culture, 1959)

Hasan, Masudul, Stories from Rumi (Karachi: Ferozsons, 1977)

Iqbal, Afzal, The Life and Thought of Mohammad Jalaluddin Rumi (Lahore: Bazme-Iqbal, 1955)

Irfani, Khwaja Abdul Hamid, The Sayings of Rumi and Iqbal (Lahore: Research Society of Pakistan, 1986)

Khosla, Krishna Kumar, The Sufism of Rumi (Shaftsbury, 1987)

Khosla, Krishna Kumar, Rumi Speaks through Sufi Tales (Chicago, Kazi Publications, 1996)

Qaiser Nazir, Rumi's Impact on Iqbal's Religious Thought (Lahore: Iqbal Academy Pakistan, 1989)

Farrukh Dhondey, Rumi: A New Translation (2011)

Farrukh Dhondy, Rumi: A New Collection (2020)

ويتصدّر شاعر الشرق العلّامة محمد إقبال اللاهوري (١٨٧٧-١٩٣٨م) مشهد العرفان المولوي في ساحة الشعر الصوفي والتفكير الفلسفي من خلال دواوينه الأرديّة والفارسيّة (بانك درا، ضرب كليم، بيام مشرق، جاويد نامه) ومؤلفاته باللغة الإنكليزية:

Development of Metaphysics in Persia (London: Luzac & Co, 1908)

Reconstruction of Religious Thought in Islam (Oxford University Press, 1934)

كما لا يفوتنا عمل أبي الحسن الندوي (١٩١٤-١٩٩٩م) الذي تناول شخصيّة الشيخ جلال الدين الرومي في الجزء الأوّل من كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" (أبو الحسن الندوي، ٢٠٠٧م: ج ١).

المرجعيّة المولويّة:

التصوف الإسلامي في الهند في سلاسلها المعروفة يستقطب شخصيات شهيرة مثل أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي (ت. ٨٦٩م) وأبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج (٨٥٤-٩٢٢م) وشهاب الدين السهروردي (١١٥٤-١١٩١م) والشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي (١١٦٥-١٢٢٠م) وجلال الدين البلخي الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) وفريد الدين العطّار (ت. ١٢٢١م) وصدر الدين القونوي (١٢٠٩-١٢٧٢م) وبهاء الدين نقشبند (١٣١١-١٣٨٩م) وسواهم. ولا يعزبنّ عن البال أنّ التراث الصوفيّ الفارسيّ كان أقرب إلى القرائح الهنديّة في السياق اللساني، إذ إنّ الفارسيّة كانت لغة الدولة في معظم الحكومات الإسلاميّة في شبه القارة الهنديّة وأدّت دورها في تطوير العمل العلميّ تأليفًا وترجمة وشرحًا في جملة من العلوم والمعارف الدينيّة والاجتماعيّة والفنون الأدبيّة، وكان التصوف من الموضوعات التى كثر فيها التأليف باللغة الفارسيّة شعرًا ونثرًا. ومن هنا كثرة الدواوين الشعريّة والمثنويات والملفوظات وكتب التاريخ والسير والتراجم والطبقات مثل "معارج الولاية" لغلام معين الدين عبد الله الخويشكي القصوري و"مرآة الأسرار" لعبد الرحمن الجشتي وغيرهما التي

تحوي كميّة كبيرة من الإحالات الصوفيّة إلى أبي حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) وجلال الدين الرومي وفريد الدين العطّار وعبد الرحمن الجامي (١٤١٤-١٤٩٢م) وسعدي الشيرازي (١٢١٠-١٢٩٢م) بوجه خاص.

المصطلح الصوفي في إحاطته لهيكليّة المفاهيم الفلسفيّة والعرفانيّة يشكّل رافدًا مهمًّا من روافد تطوير الفكر الإسلامي على أسس أنطولوجيّة تقاطع المنهج الفيزيائي والاستدلال العقلي. الصوفي يتحدّث بلغة الوجدان وتجريب الداخلي الروحي، إذ ليس عند الكتاب عبارة عن مداد وأحرف، وإنّما هو قلب مثل ثلج أبيض لم تكدّره تأرجحات حسيّة وإدراكيّة ماديّة، ولم يثقل خطاه عبأ القيل والقال النظري والجدل الاستدلالي، لأنّ قوائم الاستدلاليّين خشبيّة، ولا يخفى أنّ القوائم الخشبيّة واهنة غير مستقيمة:

پای استدلالیان چوبین بود

پای چوبین سخت بی تمکین بود

فالمقولات الصوفيّة في معالجة الوجود والتنظير الابستيمولوجي هي غير المقولات المشائيّة.

ومما يشدّ انتباهنا أنّ مثل هذا المنهج العرفانيّ الذوقيّ الإسلاميّ لا يمكن تأطيره التاريخيّ بانعزال عن تجربة الإنسان العالميّ الذي استقى قديمًا من مناهل العرفان الهنديّ من أصوله الفيديّة والأوبنيشاديّة والأفلاطونيّة المحدثة والتي نلمس أثرها في تكوينات عرفانيّة ومدارس روحيّة توفيقيّة، مثل الوحدانيّة (Monism) والحكمة المتعاليّة الخالدة (جاودان خرد: Sophia Perennis) والنورانيّة الكونيّة (Cosmo-theanderism) والعلميّة اللاهوتيّة (Theological Scientism) والباطنيّة الجديدة (Neo-esoterism)، وسواها التي اشتهر أقطابها الروحيّون مثل كوماراسوامي (١٨٧٧-١٩٤٧م) وتايتس برخاردت (١٩٠٨-١٩٨٤م) وفريتجوف شيون (١٩٠٧-١٩٩٨م) ورينه جينون (١٨٨٦-١٩٥١م) وريمون بانيكر (١٩١٨-٢٠٢٠م) في سلسلة تؤسس نفسها في السياق الهندي على فلسفة أدفيتا فيدانتا لآدي شانكرا (٧٠٠-٧٥٠م) وفلسفة ميستر

إكهارت (١٢٦٠-١٣٢٨م) في الفكر اللاهوتي الغربي[١].

إنّ الصياغة المصطلحيّة الصوفيّة أساسها قراءة الكتاب المسطور مع الكتاب المنظور، إذ إنّ الأوّل متلاحم بالثاني في تناغم أمثل. فالكون كتاب الله المنظور بينما القرآن كتاب الله المسطور، ولا خلاف بينهما في الجوهر. وورقاء الروح بعد هبوطها من حظيرة القدس الإلهي (هبّت إليك من المحلّ الأرفع..ورقاء ذات تعزّز وتمنّع، حسبما يقول الشيخ الرئيس ابن سينا في قصيدته في النفس) (ابن سينا: قصيدة النفس (Wilfred Madelung and Toby Mayer, Avicenna's Allegory on the Soul) وسجنها في القفص العنصري متعطّشة للقاء الحبيب الحقيقيّ والعودة إلى الملأ الأعلى والاتحاد بعد الانشقاق. ومن طبيعة هذه المسيرة في الفقر والغربة أن تأوي إلى حظائر الفناء وفناء الفناء والبقاء والوحدة والتوحّد والشطحات في سياق احتدام الصراع بين المادّة والروح والكثيف واللطيف والتعقّل والحال والتذوّق.

المولوي في المثنوي المعنوي يعالج قضايا الذات والخلق والتطوّر وفق منظومة رؤيويّة نبعت من تجربته ومعايشته لداخله الروحي. ومملكته المصطلحيّة

١ - يراجع:

Syed Hossein Nasr, The Encounter of Man and Nature: The Spiritual Crisis of Modern Man (Allen & Unwin, 1968), Rene Guenon, The Reign of Quantity and the Signs of Times (Sophia Perennis, 2004), The Spiritist Fallacy (Sophia Perennis, 2004), Frithjof Schuon, From the Divine to the Human (World Wisdom, 1982), Understanding Islam (Penguin, 1963), Martin Lings, The Underlying Religion (World Wisdom, 2007), A Return to the Spirit: Questions and Answers (Fons Vitae, 2005), Coomaraswamy, Time and Eternity (Artibus Asiae, 1947), The Door in the Sky (Princeton, 1997), Raimon Panikkar, The Rhythm of Being (Orbis Book, 2009), Pluralism and Oppression: Theology in World Perspective (co-authored with Paul F. Knitter), College Theology Society, 1991), besides books of Sirhindi, Mulla Sadra, Maududi, Said Nursi, Raji Al-Faruqi, Naquib Al-Attas and those of Indian Vedanta Schools.

و يراجع للمؤلف:

Sanaullah, Mohammad Al-Nadawi, The Arab Legacy in Latin Europe (Aligarh: Samia Publications. 2004), The Arab-Romance Parnassus (Aligarh Muslim University Press, 2006), Man, Cosmos and God in the philosophical summae of Islam, Proceedings of the International Interfaith Dialogue Seminar, K. J. Somaiya Bharatiya Sanskriti Peetham, Somaiya Vidyavihar Campus, Mumbai, on 7th to 11th September 2009, pp. 99-132, ISBN 978-81-7039-276-7, Perspectives on the concept of basic elements in Islam, in 'The Cosmic Elements in Religion, Philosophy Art and Literature', by Kala Acharya, Ignacio Arellano, Mariano Iturbe, Prachi Pathak, Rudraksha Sakriker (eds), Servicio de Publicationes de la Universidad Navarra, 2015. Biadeg. Biblioteca Aurea Digital del Grisco. 34. ISBN 978-84-8081-481-2.

المصحوبة بسرديات ذوقيّة وجدانيّة تبهرنا بأجمل ما يتوق إليه قارئ الروحانيّات وسالكها على السواء. وكان صوفيّة الهند على حقّ وبصيرة من الأمر مثل نظرآئهم في العالم الإسلاميّ والإنسانيّ اليوم في سياق "الغزو الرومي" العالمي- ليتجابوا مع التراث المولوي الصوفيّ تنظيرًا وتجريبًا. وهذا ما يفسّر المرجعيّة المولويّة في ملفوظات متصوّفة الهند مثل "فوائد الفؤاد" للشيخ نظام الدين الأولياء (١٢٣٨-١٣٢٥م) و"جوامع الكلم" للشيخ بنده نواز گيسو دراز (١٣٢١-١٤٢٢م) و"خير المجالس" لنصير الدين محمود چراغ دهلي (١٢٧٥-١٣٣٧م)، وآخرين، وفي المثنويات الهنديّة مثل "گل وبلبل" لأبي علي قلندر و"ليلى ومجنون" و"دولراني وخضر خان" لأمير خسرو (١٢٥٣-١٣٢٥م) و"بحر العرفان" لمرزا بيگ كامل الكشميري، وسواهم، وفي المؤلفات الهنديّة في تراجم الصوفيّة وطبقاتهم مثل "معارج الولاية" للخويشگي و"مرآة الأسرار" للچشتي، و"أخبار الأخيار" لعبد الحق المحدّث الدهلوي، وسواهم.

إقبال والرومي:

إقبال يعدُّ الرومي مرشدَه الروحيّ وأمير قافلة العشق الذي يقوده في إسرائه في ملكوت السماوات في "جاويد نامه" مقابل فرجيل (في الحجيم والبرزخ) وبياتريتشي (في الفردوس) في إسرائيات دانتي الإيطالي (الكوميديا الإلهية) (انظر للمؤلف: أثر الإسلام في الآداب الأوربية الكلاسيكية: دانتي أنموذجا (بالأرديّة)، ٢٠٠٠)، والشيطان مفستوفيليس في "الإسراء الروحي" للحكيم الألماني غوطه (فاوست). وشهير ما اعترف به إقبال قائلًا: صيّر الرومي طيني جوهرا .... من غباري شادَ كونًا آخر.

الرومي هو الذي حمل لواء العقل الإيمانيّ مقابل المنهج العقلانيّ في المدرسيّة الإسلاميّة (الأشاعرة والماتريديّة والمعتزلة على السواء)، مؤمنًا بقوّة الحبّ الذي يحوّل المرَّ حلوًا والترابَ تبرًا والكدرَ صفاءً والسجنَ روضةً والسقمَ نعمةً والقهرَ رحمةً، وهو الذي يليّن الحديد ويذيب الحجر ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة ويسوّد العبد. الحبّ صحّة الروح وروح الصحّة، ولا شراب أحلى من هذا السم ولا صحّة أفضل من هذه العلّة. العقل سباحة قد توصل الإنسان إلى الشاطئ وقد لا توصل، ولكن الحبّ سفينة نوح لا خوف على ركّابها من الغرق. الرومي يبني

فلسفته على مقومات قلبيّة إذ القلب بلد عامر وحصن محكم مصون وروضة مباركة لا ينفد نعيمها ولا ينضب معينها، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها. وليس القلب قطعة تخفق في الصدر وتتجمّع فيها الشهوات والمطامع، إذا القلب ما ذاق طعم الحب وعرف معنى اليقين. والإنسان خلاصة الكون وغاية الخلق، وهو جوهر وغرض بينما الفلك عرض وفرع وظل. والهاربون إلى الشبع والريّ والشبق هم صور الرجال ولا رجال. والإنسان المحبّ أصبح في حكم عنقاء المغرب والكبريت الأحمر الذي يبحث عنه الفيلسوف الإغريقي ديجانس الكلبي وقد حمل مشعلًا في ضوء النهار. إقبال ممتنٌ للرومي الذي أرشده إلى فلسفة الحبّ والذات هذه والتي تنسج الهيكليّة المفاهيميّة لمشروعه المعرفيّ ومهمّة تجديد الفكر الديني.

حقا، من يعرف الرومي لا يموت، ومن يعرف الرومي يُولد كل يومٍ من جديد. يتجسّد هذا السرّ في شخصيّات عرفت الرومي وأحبّته مثل إقبال وقبله شرف الدين أبو علي شاه القلندر الباني بتي.

إنّ إعادة قراءة القرآن وفق الرؤية الكونية الإنسانيّة مما يعتمده إقبال أساسيًّا في مشروع تجديده للفكر الإسلامي، مستلهمًا من التجربة الروحية للرومي وأبي يزيد البسطامي (٨٠٧-٨٧٤م) والعطّار والشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي الحاتمي الأندلسي (١١٦٥-١٢٤٠م) بجنب فلسفة النفس الاجتماعي لابن مسكويه (٩٣٢-١٠٣٠م) واجتهادات فخر الدين الرازي (١١٤٩-١٢١٠م) وابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) ونصير الدين الطوسي (١٢٠١-١٢٧٤م) حين الحديث عن الإيمان والعلم وحيويّة هنري برجسون (١٨٥٩-١٩٤١م) وبراجماتية وليام جيمس (١٨٤٢-١٩١٠م) ووجوديّة سورن كيركيجورد (١٨١٣-١٨٥٥م) ومارتن هيدجر (١٨٨٩-١٩٧٦م) (انظر للمؤلف: شعرآء وجوديون من غرب آسيا، ٢٠٠٤؛ نفسه: الاتجاهات الوجودية في الشعر العربي الحديث، ٢٠٠٧)، وكان كالنحل يأخذ من هولآء من يروقه، لا كالذباب (الندوي، عبد السلام، ١٩٩٩: ص ٣٠٠). وبذلك يوجد منظومةً متكاملة تتناغم بين التحليل العقليّ والنفسيّ والوجدانيّ وتجمع بين الدين والعلم والشعر العالي، هي منظومة لا تتلو القرآن تلاوةَ الفقيه فحسب، وإنّما تعيش الجوَّ القرآنيّ وكأنّما تنزّل عليه الوحي.

وبذلك يتهيّأ الإنسان كي يستمرّ مضيًّا صوب الإنسان الكامل (عبد الكريم الجيلي: ١٣٠٠هـ).

يقول إقبال في كتاب "تجديد الفكر الدينيّ في الإسلام" محيلًا إلى الرومي: من خصائص النزعة القرآنيّة أنّها تؤكّد على إبراز حقيقة أنّ الإنسان ينتمي للطبيعة، وهذا الانتماء وعدّهُ إمكانيّة للسيطرة على قوى الطبيعة لا ينبغي تسخيره لحساب الأهواء الجامحة المصاحبة للسيطرة، وإنّما لحساب اهتمامات أنبل تتمثّل في حركة الترقّي الحر للحياة الروحيّة. ومن أجل أن نكفل رؤية كاملة للحقيقة لا بدّ أن يدعم الإدراك الحسيّ نوعًا آخر من الإدراك، وهو الذي يصفه القرآن بإدراك الفؤاد أو القلب.... والقلب هو نوع من الحدس الجواني أو الاستبصار ويصفه الشاعر (الرومي) بكلمات جميلة فيقول: إنّه يتغذّى بأشعة الشمس ويصلنا بأوجه للحقيقة لا تتجلّى للإدراك الحسي" (إقبال: تجديد الفكر الدينيّ في الإسلام، ص ٣٥-٣٦). ويحيل إقبال إلى الرومي قائلًا: "ليس كتاب الصوفي مؤلّفًا من مداد وأحرف، ولكنّه قلب أبيض كالثلج، إنّ ما يملكه العالم هو ما يخطّه القلم، فما الذي يملكه الصوفي؟ إنّه يملك آثار الأقدام، ويقترب الصوفي متحسّسًا من فريسته مثل الصياد يرى أثر غزال المسك فيقتفيه، ويظلّ أثر أقدام الغزال هو المفتاح الهادي له لبعض الوقت ولكن بعد ذلك يصبح دليله رائحة المسك التي تفوح من الغزال لهو أفضل من سيره مئات المراحل في اقتفاء الأثر هائمًا على وجهه" (المصدر نفسه، ص ١٥٢-١٥٣) (التغذي من أشعة الشمس حرفيًّا- من مبادئ بعض التصوّف اليوجي الهندوسي، وهو جزء من مذهب: التغذي بالتنفس (Breatharianism).

يقول إقبال في سياق نظريّة التطوّر التي لا تجلب للإنسان سوى اليأس والقلق: "يحتاج عالم اليوم إلى الرومي من جديد ليبعث فيهم نزعة الأمل ويشبّ نار الحماسة للحياة" (المصدر نفسه، ص ١٩٨).

كان الرومي مأوى روحيًّا لإقبال الحائر حين إقامته في الربوع الأوربيّة المؤمنة بالماديّة الجامحة العاتية. يقول: "لقد سحر عقلك سحر الفرنج، فليس لك دواء إلّا لوعة قلب الرومي وحرارة إيمانه، لقد استنار بصري بنوره ووسّع صدري بحرًا من

العلوم... لم ينهض روميٌ آخر من ربوع العجم مع أنّ أرض إيران لا تزال على طبيعتها ولا تزال تبريز كما كانت، إلّا أنّ إقبال ليس قانطًا من تربته، فإذا سقيتها بالدموع أنبتت نباتًا حسنا وأتت محصولًا عظيما" (سيد ماجد الغوري، ٢٠٠٧: ص ٤١-٤٢).

خاتمة:

الرومي تجربة إنسانيّة كونيّة ضدّ إرساء المعرفة على أسس منطق التعقّل الأرسطي والفيزيقيّة التجريبيّة التي توسّع الفجوة بين العقلانيّ والوجدانيّ من قطاعات الإدراك والوعي إلى حدٍ يُستعصى فيه عبورها إلى العقل الإيمانيّ فبيقى الإنسان رهين فوضى الحواس الحسيّ المستبدّة به مسلوب القلب والعاطفة وفريسة القلق الإلحاديّ وكأنّه لم يخرج من غياهب الظلام الوجودي ولم يبصر بصيص النور الإيماني.

الثقافة الهنديّة الروحيّة تدخل في حوار بنّاء مع منظومة الروح والقلب المولويّة في إطار فلسفيّ ولاهوتيّ وشعريّ رفيع يؤمن بمنطلق الأخذ والعطاء في سياق المشترك القيمي الإنسانيّ للسموّ بالآدمي إلى إنسانيّة كونيّة عرفانيّة. من هنا قصة الحضور المولوي في مشهد هندي يضمّ فصائل المجتمع على غير القواعد الدينيّة المؤسساتيّة، مثل ما نجد في أوساط الحكمة الإلهيّة الخالدة أو الثيوسوفية (كومارا سوامي وطاغور، مثلا)، على أنّ العامل الدينيّ ومنظومة التجديد الفكريّ والروحيّ في سلسلتها الذهبيّة في السياق الإسلاميّ تاريخًا وسياسة وثقافة ولغة ممّا عزّز الارتباط بشخصيّة الروميّ مثلما يتبلور في ثراء المكتبة المولويّة الهنديّة (بوعلي قلندر الباني بتي، عبد اللطيف الگجراتي، كامل الكشميري، عبد الفتّاح العسكري، أيوب پارسا، عبد العلي بحر العلوم، شبلي، إقبال، وآخرون) في تعدديّة لغويّة ومذهبيّة.

يمكن تقدير مرجعيّة المولوي في شبه القارة الهنديّة بأنّ ثقافة المسلم لم تكن تعدُّ مكتملة من غير إحاطة ثلاثة كتب فارسيّة: المثنوي وگلستان وبوستان.

مصادر البحث ومراجعه:

بالعربية

الجيلي، عبد الكريم: كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل (المطبعة العامرة الشريفة، ١٣٠٠هـ).

الغوري، سيد ماجد: ديوان محمد إقبال - الأعمال الكاملة (دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٧م).

الندوي، أبو الحسن: رجال الفكر والدعوة في الإسلام. الجزء الأول (دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٧م).

الندوي، محمد ثناء الله: أثر الإسلام في الآداب الأوربية الكلاسيكية: دانتي أنموذجًا (بالأرديّة). علي كره: مطبوعات سامية، ٢٠٠٠م.

ـــــ، شعرآء وجوديّون من غرب آسيا (علي كره: دار الآداب الإنسانيّة، ٢٠٠٤م)

ـــــ، الاتجاهات الوجوديّة في الشعر العربي الحديث (مطبوعات جامعة على كره الإسلاميّة، ٢٠٠٧)

ـــــ، تقديم كتاب مصادر التصوّف الفارسي لسعيد نفيسي، ترجمة مازن النعيمي وعبد الكريم جرادات. سلسلة دراسات فكريّة جامعة الكوفة. دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠١٩م، ردمك: ٩٧٨١٧٧٣٢٢٩١٣٣.

ـــــ، الراج يوغا وأوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي، ثقافة الهند، ISSN ٠٩٧٠-٣٧١٣، المجلد ٦٦، العدد ٢، ٢٠١٥ م، ص ٢٨-٥١.

ـــــ، التعايش الفكري في الإسلام: وفقة في مرجعيّاته تشريعًا وتاريخًا، ثقافة الهند، المجلد ٦٧، ينابر- مارس ٢٠١٧، ص ١٣٧-١٦٣.

ـــــ التراث الهندي في الحضارة الإسلاميّة، مجلة المجمع العلمي الهندي، المجلد الثالث عشر، العدد المزوج ١-٢، ص ٤٢٢-٢٥٧.

ـــــ الترجمة الأدبية الدينية والفلسفية في الهند، أعمال الندوة الدوليّة عن التواصل الحضاري العالمي: الهند وإيران إنموذجًا، جامعة الكويت، الجزء الثاني، ص ٤٩٧-٥٦٦، مطابع الوطن، الكويت، ٢٠٠٧.

ب. بالفارسية والأرديّة:

الگجراتي، عبد اللطيف (ت ١٦٣٨ م): لطائف المعاني من حقائق المثنوي (طبعة نولكشور،

لكناو ١٨٤٤م)

ـــــ، لطائف اللغات (طبعة لكناو عام ١٨٨٧م)

شيكهر، تشاندرا: مولانا شناسي در هند شارحان برجسته مثنوي معنوي با ابعاد مختلف. پژوهشكاه علوم انسانى ومطالعات فرهنگى پرتال جامع علوم انسانى. ص ٢٩٠-٣٠١.

عبد المجيد، بوستان معرفت الشرح الأردوي لمثنوي مولانا روم (طبعة نولشكور، ١٩١٤م)

قلندر، شرف الدين بوعلى: مثنوى گل وبلبل، تحقيق ساجد الله تفهيمي، طبعة لاهور.

قلى خان، محمد هادى رضا (١٨٠٠-١٨٧١م) المتخلص بهدايت: رياض العارفين، بكوشش سيد رضى واحدي وسهراب زارع.

الندوي، عبد السلام: إقبال كامل (بالأرديّة)، أعظم كره: دار المصنفين ١٩٩٩م).

النعماني، شبلي: سوانح مولانا روم (بالأرديّة)، مجلس ترقي أدب، ١٩٦١م.

ج. بالإنجليزيّة:

Ali, Mohammad., The Life and Thought of Mohammad Jalaluddin Rumi (Lahore: Bazme-e Iqbal, n.d.)

Coomaraswamy, Ananda., Time and Eternity (Artibus Asiae, 1947)

___, The Door in the Sky (Princeton, 1997)

Dhondey, Farrukh., Rumi: A New Translation (Harper Collins, 2011)

___., Rumi: A New Collection (Harper Perennial India, 2020)

Guenon, Rene, The Reign of Quantity and the Signs of Times (Sophia Perennis, 2004)

___, The Spiritist Fallacy (Sophia Perennis, 2004)

Gupta, M.G., Maulana Rumi's Masnavi (Agra: MG Publishers, 1990)

Hakim, Khalifa Ahmad., The Metaphysics of Rumi- A Critical and Historical Sketch (Lahore: Institute of Islamic Culture, 1959)

Hasan, Masudul., Stories from Rumi (Karachi: Ferozsons, 1977)

Husain, K, The Legend of Rumi. The Great Mystic and the Religion of Love. Bharatiya Vidya Bhavan.

Iqbal, Afzal., The Life and Thought of Mohammad Jalaluddin Rumi (Lahore: Bazme-Iqbal, 1955)

Iqbal, Mohammad., Development of Metaphysics in Persia (London: Luzac & Co, 1908)

___,Reconstruction of Religious Thought in Islam (Oxford University Press, 1934)

Irfani, Khwaja Abdul Hamid., The Sayings of Rumi and Iqbal (Lahore: Research Society of Pakistan, 1986)

Khosla, Krishna Kumar., The Sufism of Rumi (Shaftsbury, 1987)

___, Rumi Speaks through Sufi Tales (Chicago, Kazi Publications, 1996)

Madelung Wilfred and Mayer Toby, Avicenna's Allegory on the Soul. ISBN 9781784530884.

Martin Lings, The Underlying Religion (World Wisdom, 2007)

___, A Return to the Spirit: Questions and Answers (Fons Vitae, 2005)

Nasr, Syed Hossein., The Encounter of Man and Nature: The Spiritual Crisis of Modern Man (Allen & Unwin, 1968)

Nazir, Qaiser., Rumi's Impact on Iqbal's Religious Thought (Lahore: Iqbal Academy Pakistan, 1989)

Panikkar, Raimon ., The Rhythm of Being (Orbis Book, 2009)

___, Pluralism and Oppression: Theology in World Perspective (co-authored with Paul F. Knitter),

College Theology Society, 1991)

Sanaullah, Mohd Al-Nadawi (2004). The Arab Legacy in Latin Europe (Aligarh: Samia Publications)

___, (2006). The Arab-Romance Parnassus (Aligarh Muslim University Press)

___, 'Elements of Yoga in Sufism', in History of Science, Philosophy and Culture in Indian Civilization. General Editor: D. P. Chattopadhyaya, Volume XVI, Part 2 History

of Yoga, edited by S.P. Singh (PHIPCS–Centre for Studies in Civilizations, New Delhi, 2010. ISBN 81–87586–44–3, pp. 629–652

___, 'A Synergy between Yoga and Sufi Sadhna', in Dilip Karambelkar, Kala Acharya and Mariano Iturbe (eds), Universal Brotherhood Through Yoga. Somaiya Publications Pvt. Ltd, Mumbai and New Delhi. Pp. 463–470. ISBN: 978–81–7039–306–1

___,'Beyond Hagiography: The Great Saint of Ajmer Khwaja Moinuddin Chishti', in Proceedings of the International Interfaith Dialogue Seminar, organized by K.J. Somaiya Bharatiya Sanskriti Peetham, Mumbai, 4–7 Jan, 2008, pp. 337–366, ISBN 978–81–7039–272–9

___, 'Man, Cosmos and God in the philosophical summae of Islam', Proceedings of the International Interfaith Dialogue Seminar, K. J. Somaiya Bharatiya Sanskriti Peetham, Somaiya Vidyavihar Campus, Mumbai, on 7th to 11th September 2009, pp. 99–132, ISBN 978–81–7039–276–7

___, 'Perspectives on the concept of basic elements in Islam', in 'The Cosmic Elements in Religion, Philosophy Art and Literature', by Kala Acahrya, Ignacio Arellano, Mariano Iturbe, Prachi Pathak, Rudraksha Sakriker (eds), Servicio de Publicationes de la Universidad Navarra, 2015. Biadeg. Biblioteca Aurea Digital del Grisco. 34. ISBN 978–84–8081–481–2,

____, 'Spiritualism in South Asia: Aspects of Inter and Intra–Cultural Gnostic Sufi Mingling in the Indian Sub–Continent' in Islam in South Asia. Proceedings of International Symposium on Islamic Civilization in South Asia. Edited by Halit Eren. Istanbul: IRCICA, 2013, pp. 179–196. ISBN 9789290632603.

Schuon, Frithjof., From the Divine to the Human (World Wisdom, 1982)

____, Understanding Islam (Penguin, 1963)

Tikku, G.L., Persian Poetry in Kashmir 1339–1846. UCP, London.